محاضرة: العلم وأزمة الإنسان المعاصر

شهد العصر الحديث تسارعاً غير مسبوق في وتيرة التطور العلمي والتقني، محققاً إنجازات هائلة في مجالات الاتصالات، والذكاء الاصطناعي، والهندسة الوراثية. ورغم أن هذا التقدم قد وعد بتحرير الإنسان من قيود الطبيعة وتحسين نوعية حياته، إلا أنه أفرز في الوقت ذاته تحديات عميقة، بل وأزمات وجودية وأخلاقية واجتماعية، باتت تُعرف بـ "أزمة الإنسان المعاصر"، هذه الأزمة لا تتعلق بنقص الموارد أو المعرفة، بل تتعلق بفقدان المعنى، والاغتراب، والتهديد المتزايد للقيم الإنسانية الأساسية.

1/الأزمة الوجودية والاغتراب

تُعد الأزمة الوجودية للإنسان المعاصر من أبرز نتائج التطور العلمي، حيث أدت هيمنة العقل العلمي والمنطقي إلى تهميش الأبعاد الروحية والذاتية للإنسان، مما أدى إلى شعور عميق بالاغتراب وفقدان المعنى.

أشار الفيلسوف وعالم النفس إريك فروم إلى أن الإنسان المعاصر، رغم امتلاكه لأدوات تكنولوجية هائلة، أصبح أكثر اغتراباً وخضوعاً لمؤثرات خارجية. فالتكنولوجيا، التي كان من المفترض أن تكون وسيلة لخدمة الإنسان، تحولت إلى غاية في حد ذاتها، مما أدى إلى تحويل الإنسان نفسه إلى مجرد ترس في آلة إنتاج واستهلاك ضخمة.

"ازداد اغتراب الإنسان المعاصر وخضوعه لمؤثرات خارجية، ولم تفلح التكنولوجيا في القضاء على مشكلات الإنسان بل زادتها وعمّقتها وأفرزت لنا أزمة الإنسان، وهي أزمة احتلت مكانة بارزة في الفكر الفلسفي والاجتماعي"، حيث يقول هيدغر: "التقنية ليست شيئاً محايداً، إنها الطريقة التي بها يُنشأ العالم كصورة، أي كمادة متاحة للمتطلبات المستمرة، مما يهدد بنزع الطابع الإنساني عن الوجود ذاته." يؤدي هذا إلى "نسيان الكينونة"، حيث ينشغل الإنسان بالاستخدام والفعالية وينسى السؤال عن معنى وجوده.

كما يرى "هربرت ماركوزه" في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد"، يرى ماركوزه أن المجتمع الصناعي المتقدم قد خلق نموذجاً من الإنسان الخاضع لمتطلبات الإنتاج والاستهلاك، التقنية هنا هي أداة للسيطرة الاجتماعية، حيث يتم قمع الحاجات الإنسانية الأصيلة (مثل الحرية والإبداع) لصالح الحاجات الزائفة التي يخلقها النظام (مثل الاستهلاك اللامحدود).

يمثل التقدم في مجال الذكاء الاصطناعي العام (AGI) تحدياً وجودياً مباشراً لمستقبل البشرية. فمع تجاوز قدرات الآلة للقدرات البشرية في مجالات التفكير والتعلم، يبرز التساؤل حول دور الإنسان ومكانته في عالم تهيمن عليه الكائنات الاصطناعية، وتطرح فرضية الخطر الوجودي من الذكاء

الاصطناعي إمكانية أن يؤدي هذا التطور إلى انقراض الإنسان أو كارثة عالمية، ما لم يتم التحكم فيه وتوجيهه أخلاقياً.

2/التحديات الأخلاقية والقيمية

في مجال الهندسة الوراثية، أصبحت القدرة على التلاعب بالجينات البشرية أمراً واقعاً، مما يثير تساؤلات حول حدود التدخل في الطبيعة البشرية. إن إمكانية "تصميم" الأجيال القادمة (Designer Babies) تضع مبدأ المساواة والعدالة على المحك، وتفتح الباب أمام تمييز جديد قائم على أساس بيولوجي. كما أن قضايا مثل الاستنساخ البشري، وتحديد النسل، وتمديد الحياة بشكل مصطنع، تتطلب إطاراً أخلاقياً جديداً يتجاوز الأطر التقليدية.

يتمتع العلم بقدرة غير محدودة على التدخل في طبيعة الإنسان والحياة (الاستنساخ، تعديل الجينات)، لكنه يفتقر إلى البوصلة الأخلاقية لتوجيه هذا التدخل، فهانز جوناس ناقش جوناس في كتابه "مبدأ المسؤولية" الحاجة الماسة لأخلاق جديدة للمجال التقني، يرى أن الأخلاق التقليدية كانت تتعامل مع أفعال ذات نطاق زمني ومكاني محدود، بينما التقنية الحديثة تؤثر على مصير الأجيال القادمة وعلى الحياة على الكوكب ككل، يدعو جوناس إلى "مبدأ الحذر" وإعطاء الأولوية للتهديدات الوجودية في اتخاذ القرارات العلمية.

بينما يورغن هابرماس وفيما يتعلق بالهندسة الوراثية، يحذر في كتابه "مستقبل الطبيعة البشرية" من أن محاولة "تصميم" الأجيال القادمة (التحسين الجيني) تهدم مفهوم "عدم القابلية للتصرف" في الطبيعة البشرية، وتنتزع منهم الحرية الأخلاقية في تشكيل هويتهم.

3/التفكك الاجتماعي والعزلة

أدت تكنولوجيا الاتصالات الحديثة، رغم دورها في ربط العالم، إلى مفارقة تتمثل في زيادة العزلة الاجتماعية والتفكك الأسري، فالتفاعل الافتراضي حل محل التفاعل الإنساني المباشر، مما أثر على جودة العلاقات العاطفية والاجتماعية، وأدى إلى نقص في التفاعل الإنساني العميق.

4/فجوة المعرفة والعدالة الاجتماعية

يساهم التطور العلمي في تعميق فجوة المعرفة بين الدول المتقدمة والنامية، وبين الأفراد داخل المجتمع الواحد. فمن يمتلك التكنولوجيا والمعرفة المتقدمة يمتلك القوة الاقتصادية والاجتماعية، مما يزيد من حدة التفاوت والظلم الاجتماعي، كما أن الأتمتة والذكاء الاصطناعي يهددان بتغيير سوق العمل بشكل جذري، مما يثير مخاوف جدية بشأن البطالة الهيكلية والعدالة في توزيع الثروة.

5/الأزمة البيئية

رغم أن العلم يوفر حلولاً بيئية، فإن التطور الصناعي القائم على الاستهلاك اللامحدود هو المحرك الرئيسي لتدمير البيئة، العقلية التقنية التي ترى في الطبيعة "مخزوناً دائماً" قابلاً للاستغلال (كما وصفها هيدغر) أدت إلى استنزاف غير مستدام للموارد وتفاقم التغير المناخي والتلوث.

يرى "آرني نايس" بدلاً من الاكتفاء بالتدخلات التكنولوجية السطحية لحل المشكلات البيئية، يدعو نايس إلى تغيير جذري في نظرتنا للعالم، فهو يرى أن الأزمة البيئية نابعة من الأنثروبوسنتريزم (المركزية البشرية) التي تضع الإنسان فوق الطبيعة، يجب أن يحل محلها رؤية إيكوسنترية تمنح قيمة متساوية لكل أشكال الحياة.

بينما تركز "فاندانا شيفا" على أثر التقنية الزراعية الرأسمالية (مثل البذور المعدلة وراثياً والمبيدات الكيميائية) على التنوع البيولوجي والسيادة الغذائية للمزارعين. ترى أن التقدم العلمي في هذا المجال يخدم مصالح الشركات العملاقة على حساب البيئة وصحة الإنسان، وتدعو إلى العودة للزراعة المستدامة التي تحترم قوانين الطبيعة.